ثالثاً : تعليقات ومناقشات

عود الضمير على متأخر
ومسائل أخـــر
في مقال « مع الصحف » للاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي
بقلم سالم علي سالم

عود الضمير على متأخر :

الضمير المقصود هنا ضمير الغائب ، وهذا لا بد له من مرجع يبينه . والاصل في مرجع الضمير ، كما يقول عباس حسن في « النحو الوافي » ، ان يكون سابقاً على الضمير ، ولهذا التقدم صورتان :

الاولـى : التقدم اللفظي أو الحقيقي ، وذلك بأن يكون متقدماً بلفظه ورتبته معا، كقولك: الكتاب قرأته واستوعبت مسائله. فضمير المفرد الغائب في «قرأته» وفي «مسائله» يعود على «الكتاب» الوارد نصّاً قبله والمتقدم ايضاً برتبته، فهو المبتدأ. والتقدم في الرتبة أن يكون المرجع في تكوين الجملة متقدماً على الضمير وسابقاً عليه بحسب الأصول والقواعد العربية، فرتبة الفاعل متقدمة على المفعول، ورتبة المبتدأ سابقة على الخبر، ورتبة المضاف قبل المضاف اليه، وهكذا.(١)

والثانيـة : التقدم المعنوي ، ويشمل عدة صور ، يعنينا منها هنا تقدم المرجع برتبته رغم تأخير لفظه الصريح ، كقولك : « اكرم أباه خالد » . فمرجع الضمير هنا « خالد » متأخر عن الضمير لفظاً لكنه متقدم رتبة ، فهو الفاعل . وهذا التركيب سائغ في العربية غير منكر ، وقد أقرته مراجع النحو ، كما أنه قديم لم يبتدعه المحدثون . ففي الامثال القديمة قدم الفصحى :

ببطنـــه يعـــدو الذكّـــر
بذات فمـــه يُفتضـح الكذوب
عـــادت لعترهـــا لميس
الى حيث ألقت رحلها أم قشعم
في بيتـــه يؤتـــى الحكـــم
الـــى امـــه يلهف اللهفـــان
علـــى أهلها تجنـــي براقش
حتفَها تحمـــل ضأنٌ بأظلافها

وفي هذه الامثال كلها عاد الضمير على متأخر عنه لفظاً متقدم رتبة ، والمثل الاخير تمثل به حريث بن حسان الشيباني مخاطباً قيلة التميمية بين يدي رسول الله ﷺ .(٢)

لا شك بعد هذا ان القول الذي اقتبسه الاستاذ الدكتور السامرائي في مقاله « مع الصحف » (مجلة المجمع ــ العدد ٣١) من صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية ، وهو : « عقب انسحابه المفاجيء من مؤتمر القمة الافريقي .... صرح الرئيس معمر القذافي بأن ليبيا قامت بواجبها تجاه الصحراء الغربية » ، لا شك ان هذا القول سائغ ، وفيه عاد ضمير الغائب في « انسحابه » على « الرئيس معمر القذافي » فاعل « صرح » المتقدم برتبته وان تأخر بلفظه .

ومثل هذا قول الدكتور عبدالهادي التازي في مقاله « المعجمي الدبلوماسي ابراهيم القطان » في العدد ٣١ نفسه من مجلة المجمع حيث يقول : « ويتعلق الامر بالمصحف الذي وقفت عليه هناك مما خطه بيده أحد الملوك المغاربة في العصر الوسيط » . فالضمير في « بيده » عائد على « أحد الملوك » بعده المتقدم برتبته كفاعل . ولا محل لقول الدكتور السامرائي « هذه عربية ملحونة وذلك لان بناء الجملة على هذه الصفة الاعجمية شيء لا نعرفه في عربيتنا الفصيحة » فهذا البناء من العربية القديمة السليمة ، ولا يضيره ان نجد مثله في لغة اجنبية فرنسية او انجليزية ، وقد تقدمت العربية كما نعرفها على هاتين اللغتين في الوجود اطلاقاً بعدة قرون .

وجدير بالذكر ان هذا التركيب دارج في لغة الصحافة بالمشرق العربي أيضاً ، واذكر ان الدكتور جميل علوش انتقده ، غير محق ، في جريدة الدستور الاردنية قبل بضع سنين .

أما عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة معاً ، فمثاله « أكرم ابوه خالداً » (المقصود : اكرم ابو خالد خالداً) وذلك لا يصح ، ولا أحسب ان أحداً وقع على مثله في جريدة أو كتاب ، الا كتب النحو تورده مثلاً (٣) ، ولا أتصور أحداً مهما فسد ذوقه أو بلغ باللغة جهلة يقترف مثل هذا القبح في التعبير .

لم يعد :

يقول الشيخ مصطفى الغلاييني : « وقد تكون آض ، ورجع ، واستحال ، **وعاد** ، وحار ، وارتد ، وتحول ، وغدا ، وراح ، وانقلب ، وتبدل ، بمعنى « صار » فان أتت بمعناها فلها حكمها » اي حكم اخوات كان(٤) .

وكما يجوز ادخال النفي على الافعال الناقصة (الا ما كان فيه نفي أو معنى النفي) يدخل على « عاد » لدى استعماله بمعنى « صار » ، وخلافاً لما ذهب اليه الدكتور السامرائي ، يصح اذن ان نقول : « لم يعد هناك اي مشكل » . وأستبعد ان يكون هذا التعبير مولداً او دخيلاً او مستعاراً من قول الفرنسيين ، كما استظهر الدكتور السامرائي ، فهو في العامية واسع الانتشار ، أقرب ما يكون من بقايا الفصيح .

النجاحـــات :

يقول الاستاذ السامرائي « وأرادوا بالكلمة (النجاحات) جمع الاسم وليس المصدر ، اي ما تم من النجاح فيه من الاعمال والمنجزات ، وهذا من غير شك يومىء الى ان المحرر العربي قد نظر الى الكلمة الاجنبية وهي SUCCES وهي مجموعة في الفرنسية دائماً مختومة بعلامة الجمع ، وكذلك في الانجليزية ، فلما نقلها الى العربية جعلها جمعاً » .

لقد ضيّعت بالترك القليل الذي حصّلت من الفرنسية . اما في الانجليزية فالكلمة SUCCESS (لا SUCCES) وهي مفرد قطعاً ، ولا توهم بالجمع وآخرها SS ، اذ علامة الجمع S مفردة أو ES ، ولا تجمع SUCCESS في الانجليزية اذا استعملت مصدراً ولا تدخل عليها اداة التعريف THE أو التنكير A ، لكنها تجمع بمعنى « اعمال ناجحة » أو « اشخاص ناجحون » فتلحقها حينئذ اداة الجمع المناسبة لنهايتها هكذا SUCCESSES ، وهذا نظير استعمال « نجاحات » .

ترشيـــد الاستهـــلاك :

يبدو ان كلمة « ترشيد » أدخلها الاقتصاديون في الاستعمال مقابل RATIONALISATION الفرنسية الانجليزية (مع اختلاف اللفظ في اللغتين) . وهي في الانجليزية تعني التنظيم العلمي للصناعة حرصاً على الحد من الاسراف في اليد العاملة والوقت والموارد . وتوحيد نوعية المنتجات ومقاييسها ، مع توخي المحافظة على الاسعار في مستوى ثابت .

والكلمة في هذا المعنى حديثة ، حدد معجم اكسفورد عام ١٩٢٨ تاريخاً لبداية استعمالها في المصطلح الاقتصادي . وقد وضع مجمع القاهرة لها اصطلاح « التنظيم

العلمي »(٥) فلم يأبه له الكتاب والمترجمون ، واستعملوا « الترشيد » في عبارات كالترشيد الصناعي ، وترشيد الانتاج ، أو الانفاق ، أو الاستهلاك . والمراد هنا اتباع الاولى حسبما يمليه العلم أو المنطق أو حسن التدبير أو الرأي الرشيد ، لا التقليل بالضرورة كما يرى الاستاذ السامرائي ، اذ قد يتطلب ترشيد الاستهلاك مثلاً تشجيع الزيادة في بعض بدائل السلع والتقليل في بعض لجنى فائدة اقتصادية أو تحقيق أمن غذائي ، كالحصول على البروتين من لحم الدجاج بدلاً من لحم الضأن ، واستعمال زيت الذرة الصفراء بدلاً من زيت الزيتون ، والآلة بدلاً من اليد العاملة .

هكذا يتضح ان استعمال كلمة « الترشيد » بالمعنى الاقتصادي المستحدث فيه نظراً الى معاني RATIONAL الانجليزية (منطقي ، معقول ، عاقل ، معتدل) والكلمة من جذر لاتيني نجده في الانجليزية ايضاً في RATION بمعنى حصة الجندي مثلاً من الطعام (الجراية) وفي RATIONING بمعنى التقييد في صرف الطعام أو الشراب في حالات خاصة كالانقطاع في الصحراء أو في البحر ، أو عامة كالحرب والحصار ، وفي RATIO بمعنى النسبة أو التناسب العددي بين كميتين ، ولا نجد هذه المعاني في مادة « رشد » العربية .

مـا زال :

يأخذ الدكتور السامرائي على الصحفي الذي كتب « ما زال علينا ان نقف في وجه المؤامرات » أنه استعمل « ما زال » دون ان يأتي لها بخبر تتم به الفائدة . لكن الجملة تامة مفيدة وخبر « ما زال » مقدم هو الجار والمجرور « علينا » أو متعلَّق حرف الجر المحذوف وتقديره « واجبا » ، واسمها متأخر وهو « ان نقف » ولا مجال للمؤاخذة ، الا ان اكون قد اخطأت قصد الدكتور السامرائي .

كتاب الصحف وكتاب الكتب :

يقول الاستاذ السامرائي « ان الكاتب الصحفي مترجماً كان ام غير مترجم ، غير ملم بالعربية ، ولعله مثله في تلك اللغات الاعجمية . ثم انه لا يعرف من العربية الا الاشتات التي تلقفها في المرحلتين الاعدادية والتوجيهية ، وتلك بضاعة مزجاة » .

هذا الحكم بتعميمه شديد القسوة . فهو ان انطبق على الكثير لا ينطبق على الجميع . وهو من وجه آخر يبرىء بمفهومه المخالف الكتاب غير الصحفيين ، رغم كثرة ما يدل في كتب بعضهم على الجهل بالعربية صرفاً ونحواً واسلوباً ، وهذا مثال واحد ، نجيب محفوظ ، الذي ملأ العالم العربي برواياته يكتب :

ذهبت اليه فوق قدميّ	(ماشياً على قدميّ)
جبهته عالية بصورة بارزة	(علوّاً بارزاً)
شغلنا تماماً بجدول الماء	(تماماً من الانجليزية)
يتوسطها عامود مرمرى	(عمود)
كرهت هذه الحياة حتى الموت	(حتى الموت انجليزية)
سيدة جميلة واعدة بمعاشرة سعيدة	(واعدة انجليزية)
ليتغلغلا في اعماقها اكثر	(التغلغل فيه معنى التزايد ، وان كان لا بد فالاولى : ليزدادا تغلغلا . اما « اكثر » فانجليزية) .
اود الا تبقى يوماً اكثر بلا عمل	(اكثر من الانجليزية ويغنى عنها آخر).
اكدوا على حاجة الشعب الى التربية	(هذه على التي انتقد الاستاذ السامرائي تعدية أكّد بها في لغة الصحف) .
يوجد بينهم الان قطاع طرق	(« يوجد » لا لزوم لها وهي انجليزية) .
الدنيا تتلاشى اكثر واكثر	(اكثر واكثر من الانجليزية ولا داعي اليها مع فعل تتلاشى) .
ورغم تضحيته الا انه فاز بترقية	(« فإنه » لا « إلاّ انه ») .
لم يوجد سبب للغضب	(ما كان للغضب من سبب) .
توجد عروس مناسبة لكل سن	(لكل سن عروس مناسبة) .
يوجد اتفاق بيننا على ذلك	(بيننا اتفاق) .
راقد فوق الفراش	(عليه لا فوقه) .

كم انني سعيدة	(كم انا سعيدة) .
ما دام ان الاصرار هو المسؤول	((ان » بعد « ما دام » قبيحة) .
سؤال غريب بعض الشيء	(فيه غرابة ، على شيء من الغرابة) .
والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما يثير من ازدراء	(احدى عبارتي « بقدر ما » ينبغي حذفها) .
ينوء بالعبء وتنزلق قدمه	(ينوء به العبء) .

هذا قليل من كثير في روايات نجيب محفوظ « قلب الليل » و « حضرة المحترم » و « حكايات حارتنا » بله رواياته الأخر .

نبّــه الــي ، ونبّــه علــى :

في تعليقه على عبارة « وانبه على قلمي ان يترك الزمن الردىء » من صحيفة اردنية ، يقرر الدكتور السامرائي ان استعمال « على » مع التنبيه يشير الى الهفوات والغلطات كما جاء في عنوان كتاب لحمزة الاصفهاني « التنبيه على اغاليط الرواة » ويقول لو عدلنا عن استعمال « على » مع « التنبيه » الى حرف الجر « الى » لكان ذلك دالاً على غير الخطأ والغلط كأنْ يقال « التنبيه الى عمل البر والاحسان » .

ولكنه لا يبدو لحرف الجر « على » الوارد في العبارة المقتبسة علاقة بما قرره الدكتور السامرائي ، فهذا زائد خطأ ، وقد دخل على مفعول التنبيه لا على الامر المنبه عليه أو اليه . والصحيح « انبه قلمي » لا « انبه على قلمي » . فالخطأ في وجود « على » اصلاً لا في ترك الاولى باستعمالها بدلاً من « الى » التي يؤثرها الدكتور السامرائي . ولعل العبارة هنا متأثرة بعبارة « حرّج عليه » وهي في الفصحى بمعنى شدد عليه أو ضيق عليه ، وفي العامية بمعنى شدد في نهيه ، أو عبارة « نبه عليه » في العامية بمعنى نبهه أو حذره أو أوصاه .

اما على أو الى التي يقصدها الدكتور السامرائي ، فمكانها بعد كلمة « قلمي » في العبارة المقتبسة اذا اريد التصريح بها ومضاهاتها بما اورد الاستاذ السامرائي من مثل ، ولكن الكاتب تخلّص من كلا الحرفين ، على والى ، مفيداً بالرخصة المقررة في النحو ، وهي

جواز حذف حرف الجر قبل ان المصدرية . ويصح القول لو قيل « وانبه قلمي ان يترك الزمن الردىء » كما يصح القول « وانبه قلمي الى ان يترك الزمن الردىء » من وجهة نظر نحوية ، ولا أتعرض للمعنى .

أكـــــد :

يرى الدكتور السامرائي ، وهو محق ، أن تعدية « أكد » بحرف الجر « على » كما هي في جملة « أكد الرئيس على عروبة لبنان » لا تصح و « أكد تصل الى مدخولها دون حرف جر ، وان استعمال « على » هنا ليس من العربية ، وكان ينبغي ان يقال « اكد الرئيس عروبة لبنان » . الا انه يذهب الى ان هذا التجاوز على المألوف من العربية كان بتأثير اللغات الاجنبية ولا سيما الانجليزية والفرنسية ، والفعل في هاتين اللغتين يصل الى مدخوله بالحرف « على » .

اما في الانجليزية ، فالافعال الدارجة التي تحمل معنى التأكيد تتعدى دون حرف جر ، وأشيعها ASSERT ، REASSERT ، AFFIRM ، REAFFIRM ، CONFIRM ، EMPHASISE ، STRESS ، وأما في الفرنسية ، فلا أدري ولا تثريب عليّ ، ولم يورد الاستاذ السامرائي اي مثال من الانجليزية أو الفرنسية .

البـــوّابـــة :

يقول الدكتور السامرائي ان « البوّابة » (بمعنى الباب الكبير أو الباب في السور أو الممر المفضى الى بلد او منطقة لا ممر من جهته غيره) من الخطأ الذي استحدثناه ، وليس فينا حاجة الى توليد البوّابة التي هي في الاصل مؤنث بوّاب ، وهو الآذن القديم الذي يلزم باب الامير أو الوزير او غيرهما ، فالبوّاب صاحب الباب كالجزار والحداد ، وحرفته البوابة كالنجارة والحدادة ثم كأنه يستدرك فيقول « ولسنا ننكر توليد الكلم الجديد ، وذلك ان الحياة المعاصرة تفرض علينا احداث آلاف المصطلحات في كل باب من أبواب المعرفة الجديدة » ولعله يعني انه لا ينكر ابتكار مصطلح جديد ما دام فينا حاجة اليه ، اما ما كان مثل البوّابة فلا حاجة تدعو الى توليده . على اي حال الحاجة واضحة في هذا الانتشار الواسع في استعمال « البوابة » في الكلام المكتوب والدارج ، وترد الكلمة في الترجمة مقابل GATE الانجليزية ، ولا ضير في هجر البوّابة بمعنى انثى البواب لافتقاد النساء في حرفة البوابة ، وقبولها بمعنى الباب الكبير .

ولعل توليد البوّابة بمعنى الباب الكبير كان من استعمال البوّابة لجماعة البوابين كالسيارة للقوم يسيرون والحمّارة لاصحاب الحمير في السفر ، وكذلك البغّالة ، والهجانة اليوم الجند المحمولون على الهجن من الابل في الجيش العربي الاردني . والجمع على وزن فعّالة ، كالحدّادة والدبّاغة والخيّالة والقنّاصة والكشّافة والجوّالة ، دارج في لغة التخاطب والكتابة المعاصرة .

وانتقال المعنى من الدلالة على جماعة من الاشخاص الى الدلالة على مكان اجتماعهم مشهود في مثل « الصاغة » لسوق الصاغة ، والدباغة في القدس اصبح اسم موضع استمر علما بعد اندثار حرفة الدباغة التي كانت فيه . وفي الحكايات المأثورة ان ثعلباً سأل صاحبة أين الملتقى ، وقد وقع كلاهما في الفخ فأجابه : بالفرائين بعد ثلاثة أيام ، أي في سوق الفرائين . وهكذا ، ربما اصبحت البوّابة المكان الذي يلزمه البوّابة أو جماعة البوابين ، وهو في مقتضى الحال باب كبير .

الهوامش

١ ـــ عباس حسن : النحو الوافي ١/١٨٢ .
٢ ـــ الميداني : مجمع الامثال ١/١٩٢ (١٠٢٠) .
٣ ـــ الشيخ مصطفى الغلاييني : جامع الدروس العربية ١/١٢٥ .
٤ ـــ المرجع السابق ٢/٢٧٦ .
٥ ـــ فريد فهمي ويوسف شلالة : المعجم العلمي للمصطلحات القانونية والتجارية والمالية .

تيسير العربيّة بين القديم والحديث

سمر روحي الفيصل
سورية ــ حمص

يمتاز كتاب « تيسير العربيّة بين القديم والحديث » من الدّراسات التي عالجت المشكلة اللغويّة العربيّة في القرن العشرين باتّباع المنهج التّاريخيّ . وإنّني أزعم أنّ الأستاذ الرّئيس عبدالكريم خليفة تمكّن بوساطة هذا الكتاب من تعديل الاتّجاه السّائد في معالجة المشكلة اللّغويّة . إذ إنّ الدارسين العرب المعنيين باللغة العربيّة كانوا ــ في الأعم الأغلب ــ يعالجون قضيّة تيسير اللّغة انطلاقاً من الضّعف اللّغويّ لدى النّاطقين بهذه اللّغة . وكانتِ الآراء تتباين تبعاً لهذا المنطلق . فمن قائل إنّ التّجزئة العربيّة شجّعت العاميّات المحليّة كما شجّعها الاستعمار الغربيّ . وإنّ العودة إلى اللّغة العربيّة الفصيحة سبيل الوحدة بين أقطار الأمّة العربيّة . ومن قائل إنّ انحسار العربيّة الفصيحة نتيجة بدهيّة لتفشّي الأمّيّة وضعف أساليب التّعليم . ومن اللافت للنّظر أنّ التّباين في الاتّجاهات والآراء والمنطلقات سَرْعان ما ينتهي إلى نتيجة واحدة ليس غير ، هي ضرورة العمل على تيسير اللّغة العربيّة . ولا يشك المرء في أنّ نِيّات هؤلاء الدّارسين صادقة ، وأنّ النّتائج التي وصلوا إليها صائبة ، وأنّ الخدمات التي قدّمتها دراساتهم للّغة العربيّة أكبر من أنْ نختزلها في كلمات قليلة . والمرء نفسه يؤمن أنّ هذه الدّراسات لم تُقدّم حلاً شاملاً للمشكلة اللّغويّة العربيّة ، ويعتقد أنّ مسوغ إخفاقها كامن في منهج البحث المتّبع فيها . يشير إلى ذلك استمرارنا في البحث عن الحلول النّاجعة لمعاناتنا اللّغويّة ، ورؤيتنا الضّعف اللّغويّ صباحَ مساءَ ، نطقاً وكتابة ، ممّا يدفعنا إلى التّفكير ثانية بمنهج البحث المتّبع في الدّراسات التي عالجت هذه المشكلة . فهو منهج وصفيّ يسعى إلى عرض المشكلة وبيان أسبابها واقتراح حلول ملائمة لها . ولا عيبَ في هذا المنهج غيرَ أنه لم يُحط بالمشكلة اللّغويّة العربيّة . إذ إنّنا ما زلنا ــ لهذا السبب ولغيره من الأسباب ــ نلاحظ التّلكؤ في تنفيذ الحلول التي اقترحتها هذه الدّراسات ، وفي تجسيدها في خطط وبرامج وكتب .

وحين قرأتُ كتاب الأستاذ الرّئيس عبدالكريم خليفة لاحظتُ إهماله المنهج الوصفيّ واتّباعه المنهج التّاريخيّ . وهذا يعني أنّه لم ينظر إلى المشكلة اللّغوية العربيّة على أنّها ابنة

الحاضر العربيّ ، وإنّما نظر إليها على أنّها ظاهرة ذات جذور قديمة ، ومن البديهيّ عنده تحليل الجذور لفهم حاضر الظّاهرة . وقد تمكّن الأستاذ الرّئيس بوساطة هذا المنهج من القول إنّ كتاب سيبويه إمام لكلّ ما كُتب في النّحو ، وإنّ « التّصانيف التّعليميّة التي وضعها أئمة النّحو في القرن الرّابع الهجريّ ، من أجل تيسير العربيّة وتسهيل تعلّمها ، تمثّل الإطار الحقيقيّ الذي سارتْ فيه جميع المؤلفات التي وُضعت بغية تيسير العربيّة » (ص ٧٥) . كما قاده المنهج نفسه إلى ثلاثة كتب عدّها رائدة تيسير العربيّة في القديم ، وكتابين عدّهما رائدي هذا التّيسير في العصر الحديث . هذه الكتب هي :

١ ــ الجمل في النّحو لأبي القاسم عبدالرّحمن بن اسحاق الزّجّاجيّ (ت ٣٤٠ هـ) .

٢ ــ الواضح لأبي بكر الزّبيديّ الإشبيليّ (ت ٣٧٩ هـ) .

٣ ــ اللُّمع في العربيّة لأبي الفتح عثمان بن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) .

٤ ــ إحياء النّحو لإبراهيم مصطفى (ت ١٨٨٨ هـ / ١٩٦٢ م) .

٥ ــ تجديد النّحو للدكتور شوقي ضيف (مدّ الله عمره) .

ولم يكن الأستاذ الرّئيس قادراً على توضيح ما قدّمته الكتب الخمسة السّابقة لقضيّة تيسير اللّغة العربيّة دون أنْ يلجأ إلى المنهج التّحليليّ الذي يوفّر له معرفة طبيعة تيسير النّحو في القديم والحديث . أمّا الكتب الثلاثة الأولى فتمثّل تيسير النّحو في القرن الرّابع الهجريّ خير تمثيل . إذ إنّها عرضتِ النحو عرضاً سهلاً لا تعقيد فيه ولا لجوء إلى التّعليلات الفلسفيّة ، مُنطلقةً في ذلك من الرّغبة في تقويم ألسنة المتعلّمين وأقلامهم ، إضافة إلى أنّها حافظتْ على جوهر اللّغة ولم تمسّ شيئاً فيه . وأمّا الكتابان الرابع والخامس فيمثّلان تيسير النّحو في القرن العشرين . فقد اكتفى إبراهيم مصطفى بالحديث عن إعراب الاسم وحده ، وباستبدال مصطلحات نحويّة بغيرها ، دون أن يخرج ، في منهجه العامّ ، عمّا اختطّه أئمة النّحو القدامى . وراح شوقي ضيف يصنّف أبواب النحو تصنيفاً جديداً ، فيحذف بعضها ويجمع بعضاً آخر في باب واحد ، ويراعي انتقادات ابن مضاء القرطبيّ وآراء مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة ، مُنطلقاً من هدف واضح محدّد هو صحّة النّطق ، لأنّ الإعراب ليس غاية في ذاته وإنّما هو وسيلة لصحّة النّطق .

وخلص الأستاذ الرّئيس من تحليل الكتب الخمسة إلى التّمييز بين اللّغة العربيّة وقواعد اللّغة العربيّة . فاللّغة ثابتة الجوهر ، أيْ انّ نظام تركيب الكلام ونطق الحروف فيها لا يتغيّر ولا يتبدّل ، ولم يلجأ أحد من الأئمة القدامى والمحدثين إلى أيّة محاولة للمساس بهذا النّظام الرّاسخ الأركان . وليس الهدف من تيسير اللّغة العربيّة تعديل شيء في هذا النّظام ، أو تقديم إضافات إليه . أمّا قواعد اللّغة العربيّة نحواً وصرفاً وعروضاً وبياناً فهي مصطلحات وتسميات وقواعد وضعها العرب وفق اجتهاداتهم . لهذا السّبب نستطيع تغييرها وتبديلها وتعديلها تبعاً لاجتهاداتنا وحاجاتنا اللّغويّة . وقد احتدم الخلاف بين الأئمة قديماً وحديثاً حول بعض هذه التّسميات والمصطلحات ، وتباينتْ آراؤهم باختلاف مدارسهم البصريّة والكوفيّة والأندلسيّة والبغداديّة ، وراح الراغبون منهم في التّيسير يقترحون تقديم بعض الأبواب على بعض ، أو استعمال مصطلحات جديدة بدلاً من أخرى قديمة ، وكان هدفهم في الحالات كلّها محدوداً بحدود عصمة الألسنة من الخطأ وتيسير العربيّة على الرّاغبين في تعلّمها من العرب والأجانب . وما الاختلاف بينهم إلا اختلاف في المناهج والتّسميات وطرائق العرض وتصنيف الموضوعات . بل إنّهم صدروا عن نبع واحد هو كتاب سيبويه ، وسعوْا إلى هدف تعليميّ واحد هو تقويم ألسنة المتعلّمين وعصمتها من الخطأ واللّحن .

ويخيّل إلى المرء أنّ الأستاذ الرّئيس ، بوساطة المنهجين التّاريخيّ والتّحليليّ ، عدّل الاتّجاه السّائد في معالجة المشكلة اللّغويّة العربيّة ، فنصّ على أنّها لا تتعلّق باللّغة العربيّة وإنّما تتعلّق بظروف غريبة عنها. وسكت عن نتيجة أخرى هامّة، هي أن الدّارسين العرب المعاصرين لم يقدّموا جديداً في قضيّة تيسير النّحو ، وأنّهم بذلوا جهوداً مضنية في أمر أشبعه القدامى بحثاً ، وجسّدوه في كتب بعيدة عن تعقيدات النّحاة واختلافاتهم في المصطلحات والتّسميات .. بل إنّه سكت عن القول إنّ إحياء كتب التّراث التي عالجتْ هذه المشكلة يوفّر الوقت والجهد ، ويدفع الباحثين المعاصرين إلى معالجة جوانب أخرى جديدة رسم الأستاذ الرّئيس إطارها العامّ في الفصل الذي جعله خاتمة كتابه ، وعنوانه « نظرة إلى المستقبل » .

ذلك أنّ هدفنا من معالجة المشكلة اللّغويّة العربيّة هو الوصول إلى « لغة عربيّة فصيحة موحّدة سهلة وميسرة ، بعيدة عن التعقيدات الإعرابيّة والتّخريجات والتّقديرات

النّحويّة والتّعليل والتّفسير . وإنّ منطق الأشياء ليقضي بأنْ تُبنى قواعد العربيّة الموجّهة للشّادين وعامّة الدّارسين على الشّائع الاستعمال في لغات القبائل الموثوق بفصاحتها ، دون التّطرق إلى الشّاذّ أو النّادر أو القليل ، وأن نميّز بين أهداف هذه المصنّفات وبين تلك التي تكون موضع الدّراسات التخصصيّة في مراحل التّعليم الجامعيّ » (ص ١٠١) . ولكي يتحقّق هذا الهدف لا بدّ من الاستعانة بفقه اللّغة ، واستعمال الوسائل التّقنيّة الحديثة وما وصلت إليه علوم الصّوتيّات واللّسانيّات في دراسة العربيّة (ص ١٠٢)، وتحديد موقع اللّغة العربيّة من المناهج الدراسيّة (ص ١٠٤) ، والاهتمام بإعداد معلّم هذه اللّغة في ضوء النّظريّات العلميّة والأساليب التّربويّة الحديثة (ص ١٠٤) ، والعناية بالمستويات العلميّة واللّغويّة للكتب المدرسيّة ، وتطوير التّعليم اللّغويّ ودراسة مشكلاته ووضع الحلول لها واختيار أنجع أساليب التّدريس (ص ١٠٥) ، والشّكل الكامل لحروف الكلمات كلّها (ص ١٠٧) ، وتأصيل قاعدة أنّ كلّ معلّم هو معلّم للّغة العربيّة ، وأنّ كلّ كتاب هو كتاب للقراءة والمطالعة (ص ١٠٨) .

وغير خاف على أحد أنّ هذه « النّظرة إلى المستقبل » نظرة كلّيّة إلى المشكلة اللّغويّة العربيّة ، أو هي تعبير عن أنّ الأستاذ الرّئيس يعي جيداً أنّ الضّعف اللّغويّ الذي نعاني منه لا يعود إلى قضيّة تعليم اللّغة العربيّة وحدها ، وإنّما هو أمر مركّب يتعلّق بجوانب الحياة العربيّة كلّها . وكان المرء يتمنّى أنْ تأتي هذه « النّظرة إلى المستقبل » أكثر تفصيلاً ، لأنّ الأمور التي ذكرها الأستاذ الرّئيس تُعدّ منطلقاً سليماً لمعالجة الضّعف اللّغويّ على أنْ نبتعد دائماً عن إصلاح أمر منها دون آخر ، فالمعالجة الجزئيّة لا تقود إلى نتائج سليمة ، وربّما كانتْ ضالّة مُضلّة . ولا يبالغ المرء حين يعتقد أنّ العيب الرّئيس في غالبيّة الدّراسات التي عالجتِ المشكلة اللّغويّة العربيّة كامن في الإيمان بأنّ اللّغة العربيّة صعبة . وسواء أكان الباحثون يعلنون هذا الإيمان أم يخفونه فإنّ منحى دراساتهم ينمّ عن أنّهم مؤمنون به كلّيّاً أو جزئيّاً . وتستحقّ دراسة الأستاذ الرّئيس الثّناء لأنّها خالية من أيّ أثر لهذا الإيمان ، مُدافعة دفاعاً حارّاً عن أنّ نظام اللّغة العربيّة ثابت لا يتغيّر ، وأنّ الهدف الرّئيس من التّيسير هو تقويم ألسنة المتعلّمين وعصمتها من الخطأ واللّحن .

وليس المراد أنْ يهمل الباحثون العرب أمر تيسير قواعد اللّغة العربيّة . إذ إنّ الجهد الذي يبذلونه لتقريب العربيّة من النّاطقين بها جهد نافع مهما يكن رأينا فيه . إنّ مرادنا أن يعدّل هؤلاء الباحثون مناهجهم واتّجاه دراساتهم ، ولو فعلوا لأصابنا خير كثير . ذلك أنّ المرء يؤمن إيماناً لا تشوبه شائبة بأنّ قضيّة الضّعف اللّغويّ عُولجتْ معالجة جزئيّة لا تقود إلى نتائج كلّيّة . ولو التفت الباحثون العرب إلى الأمور التي نصّ عليها الأستاذ الرّئيس مجتمعةً لساروا في الاتّجاه السّليم الذي يقود إلى نتائج صائبة . ولا يقلل من شأن هذه الأمور أن نضيف إليها أموراً أخرى نؤمن بأثرها الإيجابيّ أو السّلبيّ في معالجة المشكلة اللّغويّة العربيّة .

أول هذه الأمور الإيمان بأنّ العيب كامن في النّاطقين باللّغة العربيّة وليس العيب في اللّغة نفسها . إذ إنّها لغة جميلة نملكها ولا تملكنا ، ونحن قادرون على اكتسابها كما اكتسبها أجدادنا إذا بذلنا الجهد والوقت ، وصدقت نيّاتنا ، واقتربنا أكثر من القرآن الكريم مصدرها الرّئيس وركنها المكين . ولو انطلقنا من أنّ العيب كامن فينا لرحنا نبحث عن العوائق التي تحول دون اكتسابنا اللّغة العربيّة اكتساباً سليماً ، ولم نهمل عائقاً وإنْ بدا لنا صغيراً أو هامشيّاً . فانتشار التّعليم ذو أثر إيجابيّ في الفصيحة ، وسلبيّ في العاميّة . لكنّ انتشار التّعليم لا يعني « الكمّ » على حساب « الكيف » . كما أنّ دعاة مجانيّة التّعليم ما رغبوا يوماً في تدني سوية النّاطقين بالعربيّة ، وما قصدوا إلى ذلك حين دعوا بصدق وحماسة إلى أنْ يكون التّعليم كالماء والهواء لكلّ إنسان ، من المهد إلى اللّحد . لكنّنا ــ لأسباب اقتصاديّة وغير اقتصاديّة ــ حرفنا الدّعوة عن جادّة الصّواب ، ورحنا نقبل ، كلّ عام ، آلافاً من الطلبة في مدارسنا وجامعاتنا ، ونضطر إلى اليسر في التّعليم ، والكرم في منح الشّهادات . ولم يكن هذا مرادنا من انتشار التّعليم . إذ كنّا نعتقد أنّ هدفنا هو ترسيخ النّظام اللّغويّ العربيّ ، أو تجسيد مضمون مصطلح « التّعريب » بمفهومه الحديث . وقد وضّح الأستاذ الرّئيس هذا المضمون في مقدّمة كتابه « اللّغة العربيّة والتّعريب في العصر الحديث » ، فقال : إنّ المفهوم الحديث للتّعريب « بات يدلّ على جعل العربيّة لغة التّعليم في جميع مستوياته ، ولغة البحث العلميّ والتّقنيّات الحديثة في وطننا العربيّ . وهو مفهوم لا يقتصر على التّعبير عن جميع أنواع المعرفة باللّغة العربيّة ، بل يتعدّاه إلى تأصيل هذه العلوم وتلك المعارف في الفكر العربيّ وفي البيئة العربيّة والمجتمع العربيّ » (ص ٦) .

وباختصار ، فإنّنا لا نرغب في مزيد من حملة الشّهادات ، وإنّما نرغب في مزيد من أصحاب الفكر العربيّ . واللّغة العربيّة ـــ كما هو معروف ـــ أساس العروبة ، ولا مسوّغ في هذا الأساس لقبول معلّم لا يتقن لغته ، ولا رأي لجامعة لا تُعدّ طلّابها إعداداً لغويّاً سليماً . ويجب ألّا ننسى في أثناء ذلك كلّه الجوانب الاقتصاديّة للمعلّم وللطّالب وللبحوث اللّغويّة والتّربويّة . وعلينا أن نتذكّر دائماً أنّ خُطط وزارات التّربية والتّعليم العالي خاضعة للميزانيّة التي تُخصّصها الدّولة لهذه الوزارات ، وليستِ الميزانية خاضعة لهذه الخطط . أيْ أنّ التّعديل الجذريّ في الحياة اللّغويّة العربيّة يجب أنْ يبدأ من العودة إلى المفهوم الحقيقيّ للتّعريب أو انتشار التّعليم ، وأنْ يمسّ جوهر التّنمية العربيّة ، بحيث تنتقل التّنمية الثّقافيّة من التّبعيّة للتّنمية الاقتصاديّة إلى الرّيادة وجعل التّنمية الاقتصاديّة تابعة لها ، دون أنْ ينسى المرء في الوقت نفسه مشكلة ضعف الأمّة العربيّة وقوة الأمم الأجنبيّة ، وأثر هذه المشكلة في الهويّة العربيّة . وإلّا فكيف نفسّر ذلك الإقبال على الأسماء الأجنبيّة في المنتجات العربيّة وفي عنوانات المحالّ العامّة .. ؟ . وكيف السّبيل إلى لغة فصيحة دون أمّة عربيّة قويّة قادرة على حماية لغتها ودفع أبنائها إلى الاعتزاز بها ؟! ...

الأمر الثّاني ذلك الموقف الانتقائيّ من التّراث العربيّ . وهو موقف انتقائيّ لأنّه بعيد عن أيّة خطّة توحّد العاملين في حركة إحياء التّراث العربيّ مؤسّسات وأفراداً . وقد أشرنا إلى هذا الموقف الانتقائيّ لنصل إلى نقيضه ، أيْ الخطّة التي تسعى إلى إحياء الكتب القادرة على المساهمة في معالجة المشكلة اللّغويّة العربيّة . ذلك أنّ وعي الماضي يساعد على تقديم معالجات صائبة لما يعتمل في الحاضر العربيّ . وأشير هنا إلى مواقف أجدادنا من العاميّات والكلمات الدّخيلة والتّرجمة والتّعريب وتعليم النّاشئة وغير ذلك ممّا يساعد على فهم جذور المشكلة اللّغويّة في الحاضر العربيّ . وإذا قصرنا الحديث على موقف أجدادنا من تعليم النّاشئة تذكّرنا ما انتهى إليه الأستاذ الرّئيس من أنّ صعوبة اللّغة العربيّة قضيّة مزيّفة لا أساس لها من الصّحة ، وأنّ أجدادنا بذلوا جهداً في تيسير النّحو نستطيع الإفادة منه بأنْ نجعل كتبهم ، كلّها أو بعضها ، منطلقاً لمعالجة قضيّة تيسير النّحو . وما هو أكثر أهميّة أنْ نستفيد من منهج أجدادنا التّعليميّ ، وهو منهج شامل غير مقصور على النّحو . ونقول ، بتعبير آخر ، إنّ وعي الماضي قادر على أنْ يرسّخ فينا أنّ تيسير النّحو لا يحلّ

المشكلة اللّغويّة التي نعاني منها ، ولا يساعد ناشئتنا على تقويم ألسنتهم وأقلامهم ، وأنّ منهج أجدادنا التّعليميّ لم يكن مقصوراً على النّحو وإنّما كان منهجاً شاملاً ينظر إلى اللّغة على أنّها وحدة لا تتجزّأ إلى فروع . لهذا السّبب انطلقت كتبهم التّعليميّة من النّصوص ، وراحت من خلالها تُعلّم النّاشئين النّحو والصّرف والبيان والعروض والأدب شعره ونثره ، إضافة إلى التّركيز على مهارات الأداء والتّلقي والتّذوق عند المتعلّمين . فهل نعي جيداً هذا المنهج الكّليّ الذي انطلقوا منه ، ونسعى إلى الإفادة منه ؟ ..

الأمر الثّالث هو أنّنا ما زلنا نتجاهل قدرة المتعلّم المتلقّي للّغة العربيّة في أثناء معالجتنا مشكلة الضّعف اللّغويّ لدى النّاشئة . والمراد هنا تقديم ما يستطيع المتعلّم تمثّله وتجسيده في سلوكه اللّغويّ تبعاً لقدراته العقليّة ومرحلة النّمو التي يمرّ فيها . وإنّ تجاهل هذا الأمر لن يقود إلى شيء غير السّؤال المعروف : لماذا يتقن الطّالب في المدارس والجامعات ما نقدّمه له من معارف لغويّة وأدبيّة ؟ فإذا سألنا أنفسنا والاختصاصيّين بعلم نفس المتلقّي عن القدر الملائم من المعارف والمهارات في كلّ مرحلة عمريّة ، وقدّمنا هذا القدر بأسلوب يقبله المتعلّم ولا تعافه نفسه ، وصلنا إلى نتائج لغويّة سليمة . فقواعد النّحو ـــ على سبيل التّمثيل لا الحصر ـــ مجرّدة ، وطفل المدرسة الابتدائية لا يقبل المجردات في مراحله العمريّة كلّها . هذه المعرفة تقودنا إلى أنْ نُقدّم للطّفل ، أوّل الأمر ، تدريباً لغويّاً تطبيقيّاً ، ثم نساير نموّه العقليّ واللّغويّ فنقدّم له التّسميات والقواعد بتدرّج يحدّده علم نفس الطّفل .

إنّ الحديث عن اللّغة العربيّة ذو شجون ، لأنّه حديث عن الأمّة العربيّة في ماضيها وحاضرها . وما كتاب الأستاذ الرّئيس إلّا حلْقة ماتعة مفيدة من حَلَقات هذا الحديث .